إلى ذكرى والدىَّ ، رحمهما الله ،
اللذين تعهَّدانى بالتنشئة والتوجيه
حتى وصلت إلى ما كنت أصبو إليه ،
أتقدم بهذه الثمرة الأولى من غرسهما .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

لا تكاد هذه الطبعة الجديدة تختلف عن الطبعة السابقة فى شىء أساسىّ ، فلم أدْخل عليها إلا تعديلات يسيرةً لبعض العبارات ، وإضافات قليلة لبعض الشروح . وعلى الرغم من أنّ صلتى بموضوع « الصعاليك » لم تنقطع طَوَالَ هذه السنينَ التى مضت على ظهور الكتاب ، فإن النتائج التى كنت قد انتهيتُ إليها فى هذا البحث لم تتغيَّرْ ، بل لقد زادتنى هذه السنونَ إيمانًا واقتناعاً بها . حتى المصادر التى أُتيحَ لى الاطلاعُ عليها فى هذه السنين ، ولم تكن الفرصُ قد أتاحتْ لى الاطلاعَ عليها مِنْ قَبْلُ ، لم تُقَدِّمْ لى جديداً يفيد البحث أو يُغَيِّرُ من نتائجه .

وقد كنت تمنَّيْتُ — وأنا أُعِيد هذا البحث — لو أُتيحتْ لى فرصةُ الاطلاع على ديوان تأبَّط شرًّا الذى جمعه ابنُ جنّى ، والذى يذكر بروكلمان أنه مخطوط فى الإسكوريال . ثم أتيحتْ لى فى الأيام الأخيرة فرصة الاطلاع على هذا المخطوط ، فلم أجده ديوانًا لتأبط شرًّا ولا شِبْهَ ديوان ، وإنما هو مختارات قليلة اختارها ابنُ جنى من ديوان تأبَّط شرًّا الذى كان موجوداً عنده كما يذكر صاحب الخزانة ، وهى مختاراتٌ لم أجدْ فيها جديداً أضيفُهُ إلى البحث .

على أنّى أريد هنا أن أؤكِّدَ — بصفة خاصة — فكرةً كَثُر الجدل حولها فى هذه السنين ، وهى فكرة « اشتراكية الصعاليك » التى أدَرْتُ حولها بحثى ، وفسَّرتُ فى ضوئها هذه الثورة الاجتماعية والاقتصادية التى شهدها المجتمع الجاهلى ، وخاصةً عند عُرْوة بن الوَرْد الذى تَرَاءَى لى داعيةً من دعاة

الاشتراكية فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الإنسانية . فقد ذهب بعض الباحثين إلى أننى تعسَّفتُ فى تفسير الشعر الجاهلى هذا التفسيرَ الاقتصاديَّ ، وأننى حمَّلتُ النصوصَ والأخبار القديمة ما تَنُوءُ به من مصطلحات حديثة ترتبط فى أذهان الناس بمفاهيمَ خاصة لم يعرفها العصر الجاهلى ، ولم تَدُرْ فى خَلَد هؤلاء الشعراء القدماء .

وأنا لم أزْعُمْ أن ثورة الصعاليك فى العصر الجاهلىّ كانت ثورة اشتراكية قائمة على أساس المذهب الاشتراكىّ كما تعرفه مجتمعاتنا المعاصرة ، فمِثْلُ هذا التفسير يُعَدّ — بدون شك — تعسُّفاً لا يتفق مع المنهجية الجامعية ، فما من شك فى أن هناك فروقًا جوهرية بين الاتجاهين سواء فى الفلسفة النظرية أو فى التطبيق العملى . وإنما الذى ذهبتُ إليه هو أنَّ فى شعر الصعاليك وأخبارهم ، وخاصة عُروة بن الوَرد ، أفكاراً تتصل بمشكلة الفقر والغنى فى المجتمع الجاهلى ، وتنادى بثورة المُسْتَضْعَفين من فقراء هذا المجتمع والمضطهَدين فيه على طبقة المَالَة من الأغنياء المتخمين وخاصةً البخلاء منهم ، وأن هذه الثورة كانت تستهدف تحقيقَ صورة من صور العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصاديّ فى هذا المجتمع . وإذا كانت هذه الأفكار لم تأخذ شكلَ نظرية علمية دقيقة ، أو شكل فلسفة اقتصادية متكاملة ، وإذا كان التطبيقُ العمليّ لهذه الأفكار سلَكَ أسلوبًا فَرْديًّا أقربَ إلى الفوضوية منه إلى أساليب التنفيذ العمليّ المنظم فى الاشتراكية الحديثة ، فإن هذا كله لا يمنع من القول بأن هذه الأفكار كانت تنطوى على إحساس عميق بمشكلات المجتمع الاقتصادية ، ومحاولة جادَّة لحلها ، وأن هذا — بدون شك — كان يمثل صراعًا بين طبقة الفقراء ممثَّلةً فى هؤلاء الصعاليك العاملين ، وطبقة المَالَة ممثَّلةً فى هؤلاء الأغنياء البخلاء ، وهو صراع كان يضُمُّ فى أعماقه بَرَاعيمَ لم تتفتَّحْ تمامًا من النظرية الاشتراكية الحديثة .

وما من شك فى أن الصعلكة عند عروة بالذات كانت — كما قلتُ فى

هذا البحث — « نزعةٌ إنسانية نبيلة ، وضريبةٌ يدفعُها القويّ للضعيف ، والغنيُّ للفقير ، وفكرةٌ اشتراكية تُشْرِكُ الفقراء فى مال الأغنياء ، وتجعلُ لهم فيه نصيباً ، بل حقًّا يغتصبونه إنْ لم يُؤَدَّ لهم » .

وبعد ، فكل ما أطمعُ فيه أن أكون قد نجحتُ فى إنصاف هؤلاء الصعاليك ، ووَضْعِهم فى مكانهم الطبيعىّ فى تاريخنا العربى الخالد ، وأن أكون قد لَفَتُّ أنظار الباحثين إلى أنّ فى تُرَاثِنا القديم جوانبَ تحتاج إلى إعادة النظر فيها فى أضواءٍ جديدة .

واللهَ نسألُ أن يجنبنا الخطأ ، ويَعْصِمَنا من الزَّلَل .

القاهرة فى مايو ١٩٦٦ — يوسف خليف

مقدمة الطبعة الأولى

١

ليست دراسة العصر الجاهلى بالمسألة اليسيرة القريبة المنال ، وإنما هى مسألة غامضة ومتشعبة وصعبة .

أما غموضها فيرجع إلى طبيعة العصر نفسه ، فهو عصر يمتد القهقرى من ظهور الإسلام إلى حيث لا ندرى ، أو هو تلك الفترة الغامضة من فترات التاريخ العربى التى يصح أن نطلق عليها « عصر ما قبل التاريخ العربى » ، على أساس أن التاريخ العربى فى صورته الدقيقة الثابتة إنما يبدأ منذ ظهور الإسلام الذى جعل من العرب أمة واحدة ذات كيان متميز متماسك ، تسلك سبيلها فى التاريخ ، سبيلا واضحة المعالم . فهو عصر أكثر فتراته ضائعة مجهولة ، وأقلها مشكوك فيها ، وحسبنا أن نقول إننا لا نكاد نعرف عنه شيئاً منذ بدايته إلى ما قبل ظهور الإسلام بحوالى قرن ونصف قرن ، وإنما هى طائفة من الأساطير والأقاصيص . إن تكن ذات قيمة لطائفة من العلماء فإنها عديمة القيمة تقريباً للباحثين فى الأدب العربى . وحين تبدأ معلومات هذا العصر تصل إلينا يقف دون وضوحها أو الاطمئنان إليها أمران : فهى — من ناحية — تتحدث عن مجتمع بدوىّ بَعُدَ العهد به ، وهى — من ناحية أخرى — معلومات لم تدوَّن إلا فى عصور متأخرة ، وظلت شفاه الرواة تتناقلها حتى دونت ، بعد أن دخلها — بطبيعة الحال — شىء قليل أو كثير من التحريف والضياع والانتحال . ومن هنا نشأت فكرة الشك فيما وصل إلينا من أخبارٍ ونصوصٍ عن هذا العصر . ومن هنا أيضاً وُجدت فكرة الغموض : غموض العصر الذى لا نستطيع تمثله التمثل الدقيق الواضح ، وغموض المعلومات التى لا نستطيع الاطمئنان إليها اطمئناناً تامًّا .

وهى مسألة متشعبة، لأنها تتصل بمجتمع رَعَوِى — فى مجموعه — لم يعرف الاستقرار . ومن هنا لم تَعْرِف ظواهره الاجتماعية الاستقرار الذى ييسر على الباحث دراستها دراسة دقيقة كاملة . ثم هو — إلى جانب هذا — مجتمع يدين بالحرية الفردية إلى أبعد حد ، لم يعرف — إلا فى بعض أجزائه — النظام السياسى الذى يهيئ للباحث تحديد جوانب دراسته . لأنه يقف أمام طائفة من الظواهر الفردية تتعدد بتعدد الأفراد أو الجماعات التى هى فى حكم الأفراد ، فلم تكن الجماعات التى عرفها المجتمع الجاهلى سوى مجموعات من الأفراد تدين بالحرية الفردية ، وإن تكن حرية حاول أصحابها — تحقيقاً لصورة ما من صور الجماعة — أن يلونوها بلون جَمَاعى .

ثم هى مسألة — بعد هذا وذاك — صعبة ، لأنها غامضة ومتشعبة .

ولكنى مع ذلك — ولا أدرى لماذا ؟ — مفتون بهذا العصر الجاهلى فتنة ترجع إلى عهد بعيد ، وكل ما أتمناه أن تتحول هذه الفتنة إلى إيجابية فعالة تُحَطِّم من هذه الصخرة العاتية ، صخرة هذا العصر .

٢

من هذه الزاوية من زوايا النظر لم أحاول — حين فكرت فى دراسة العصر الجاهلى — أن أقف منه موقفاً عامًّا شاملا، أو أن أنظر إليه من عَلُ نظرة مُشْرِفة واسعة الأفق ، وإنما حاولت أن أتخير — خطوة أولى لدراسته — جانباً من جوانبه أقف عنده وقفة عميقة ، وأنظر إليه نظرة ممعنة فاحصة ، حتى لا تضل دراستى بين شعاب الصحراء الفسيحة المترامية الممتدة إلى ما وراء مطارح البصر .

وشغلتنى مهمة الاختيار هذه فترة من الزمن ، كنت فى أثنائها أستعرض الجوانب المتعددة لهذا العصر ، وكلها يستحق الدرس والبحث . ثم قفز إلى ذهنى موضوع « الصعاليك » ، وأخذتْ أسهمه فى الصعود .

قفز هذا الموضوع إلى ذهنى لأنه موضوع لم يُعْنَ به الباحثون من قبل ، ولم يقفوا عنده ، ولم يشغلوا أنفسهم به ، وأخذت أسهمه فى الصعود لما كنت أشعر به من أهميته ، وطرافته ، وتحديده ، وتمثيله ظاهرة متميزة من ظواهر العصر الجاهلى .

ويقف موضوع الصعاليك فى تاريخ الأدب العربى كتلك المراقب الشُّمِّ الشامخة التى أطال فى الحديث عنها شعراؤهم ، والتى لم يكن أحد غيرهم يستطيع أو حتى يجرؤ على الصعود إليها ، يحوم حوله الباحثون ثم يتجنبون المغامرة باقتحامه ، أو ينظرون إليه نظرة خاطفة دون إقدام على الاقتراب منه ، مع اعترافهم بأنه موضوع فى حاجة إلى البحث والدرس ، كأنه منطقة خطرة من تلك المناطق التى كان الصعاليك يمارسون فيها نشاطهم الدامى الرهيب ، وكأنما كُتب على هؤلاء الصعاليك الذين لم يلقوا من مجتمعهم عناية أو اهتماماً فى حياتهم أن تظل اللعنة تلاحقهم طوال تلك القرون المتعاقبة بعدهم ، وكأنما كتب على هؤلاء المشردين فى آفاق الأرض أن يظلوا مشردين فى أعماق الكتب والأسفار .

وفى أذهان الناس عن الصعاليك صورة غامضة غير مشرقة ، تكسوها ظلال قاتمة تحجب كثيراً من معالمها وخطوطها ، وتغشّيها سحب دُكْن تخفى وراءها كثيراً من النور والضياء ، وينقصها كثيرٌ من الأضواء الكاشفة تجلو عنها ظلالها القاتمة ، وتبعد عنها سحبها الدكن ، حتى يتبين ما يحتجب خلفها من معالم وخطوط وأضواء .

ومهمتى فى هذا البحث أن أحاول تجلية هذه الظلال ، وإزاحة هذه السحب ، حتى يستبين ما وراءها ، وتبدو الصورة على حقيقتها واضحة مشرقة .

٣

وقد كان أساس المنهج لبحث هذا الموضوع أن أبدأ غير متأثر برأى أحد من الباحثين ، فآثرت فى أول الأمر أن لا أقرأ شيئاً عنه لأحد من الباحثين ، ومضيت إلى أخبار الصعاليك وأشعارهم فى مصادرها الأصيلة الأولى فى محاولة جاهدة لتكوين رأى لى ، وانقضت سنوات وأنا سعيد بصحبة هؤلاء « الفتيان » — كما كان يحلو لهم أن يسموا أنفسهم — أقرأ وأدون ، وأتأمل وأفكر ، وأحدد خطوط الصورة ، وأنقب عن معالمها ، حتى إذا ما كونت لنفسى رأياً فى الموضوع ، وأخذتْ خطوط الصورة ومعالمها تتضح لى ، مضيت أبحث عن دراسات الباحثين فيه ، فراعنى أنى لم أجد أحداً قبلى قد عُنِىَ بدراسته دراسة شاملة متخصصة ، وإنما كل ما عثرت عليه طائفة من المقالات تترجم لجماعة من الشعراء الصعاليك ، أو بعض الأبحاث السريعة فى هذا الموضوع ترسم الخطوط العامة له ، حتى إن « دائرة المعارف الإسلامية » — على ضخامتها وسعتها ، وكثرة موادها ، وتعدد القائمين بها — لم تعرض لهذا الموضوع على الإطلاق ، وإنما كل ما فعلته أنها ترجمت لطائفة قليلة من شعرائه ، هم عروة والشنفرى وتأبط شرًّا .

ونظرت فإذا علىّ أن أدرس جانبين : حياة هؤلاء الصعاليك كما تتمثل فى أخبارهم وأشعارهم لأستخلص منها الجوانب المختلفة لظاهرة الصعلكة ، ثم شعرهم من حيث هو نتاجهم الفنى المعبر عن آرائهم وأفكارهم لأستخلص منه هذه الآراء والأفكار ، ولأسجل فى ضوئه الظواهر الفنية التى تميز فنهم . وهكذا انقسم البحث إلى قسمين أساسيين : دراسة للظاهرة ، ودراسة للشعر .

ثم نظرت فإذا القسم الأول ممعن فى الغموض ، فما معنى الصعلكة ؟ وما تعريف الصعلوك ؟ وهل يتفق المفهوم اللغوى لهما مع ما عرفه المجتمع الجاهلى عنهما ؟ فرأيت أن أفرد فصلا للتعريف بهذه الظاهرة ، عرضت فيه للتعريف

اللغوى للمادة ، ثم عرضت هذا التعريف على النصوص الأدبية التى وَرَدَت فيها ، حتى أدرك إلى أى مدى ينطبق عليها، وأدركت أن هذا التعريف اللغوى لا يكفى لفهم هذه الظاهرة ، فكان لابد من المضى إلى المجتمع الجاهلى أتلمس فى أخبار صعاليكه وأشعارهم جوانبها المختلفة ، ومعالمها المميزة لها .

ثم وقفت أمام هذه الظاهرة وتساءلت : ما السر فى نشأتها ؟ وما العوامل التى أدت إلى ظهورها ؟ ورأيت أن أمضى إلى علم النفس الاجتماعى أسأله تفسيراً لها ، فدرست المجتمع ، والتوافق الاجتماعى ، و « اللاتوافق » ، وعُقَدَ النقص ، ودرست الفقر ، والمشكلات الاقتصادية ، والمذاهب المختلفة التى حاولت أن تجد لهذه المشكلات حلا ، وانتفعت بكل هذه الدراسات فى تكوين فكرة عن هذه الظاهرة ، ، وانتهيت إلى أن هناك ثلاثة عوامل عملت فى نشأتها وتطورها : عامل جغرافى ، وعامل اجتماعى ، وعامل اقتصادى . فمضيت إلى المجتمع الجاهلى أدرس فيه هذه الجوانب الثلاثة على هذا الأساس ، ورأيت أن أفرد فصلا لكل منها ، ولم أفرد للتفسير النفسى فصلا خاصًّا لأنه عامل مشترك بين كل هذه العوامل . وهكذا كان الباب الأول فى أربعة فصول .

ثم مضيت إلى مجموعة شعر الصعاليك التى بذلت جهداً كبيراً فى جمعها من مصادر متعددة ، ورأيت لزاماً علىّ أن أعرض — قبل كل شىء — لتلك المصادر المتعددة التى اعتمدت عليها فى جمع ما يصح أن نسميه « ديوان الصعاليك » ، وتلك المصادر الأخرى التى لم تصل إلينا إلا أسماؤها ، إما لأنها فُقدت ، وإما لأنها ليست بين أيدينا . كما رأيت من الضرورى أن أعرض لمدى صحة ما ترويه المجموعة الأولى من المصادر من شعر الصعاليك ، حتى أنتهى إلى رأى فيما يثور حوله من شك فى بعض نصوصه ، وأفردت لهذه المقدمات الفنية الفصل الأول من الباب الثانى .

ثم نظرت فى مجموعة شعر الصعاليك ، ورأيت أن أفرد فصلا لموضوعاته ، سواء ما كان منها « داخل دائرة الصعلكة » ، وما كان منها « خارج هذه

الدائرة » ، فكان الفصل الثانى من هذا الباب .

ثم مضيت إلى هذا الشعر أدرس ظواهره الفنية من حيث طبيعة العمل الفنى وخصائصه ، ومن حيث لغته وأوزانه ، وأفردت لهذه الدراسة الفصل الثالث من هذا الباب .

ثم رأيت أن أقدم — أخيراً — دراسة مستقلة لشاعر من الصعاليك يكون نموذجاً لهم ، أطبق عليه ما وصلت إليه فى أثناء البحث من نتائج ، ولكنى رأيت أن أمامى شخصيتين متميزتين اجتماعيًّا وفنيًّا : شخصية الصعلوك الزعيم التى يمثلها عُرْوة بن الورد ، وشخصية الصعلوك العامل التى اخترت الشَّنْفَرَى مثلا لها ، وقد اخترت الشنفرى بالذات لأن له ديواناً بين أيدينا مما يجعل التوازن قائماً بينه وبين عروة ، وله هو أيضاً ديوان بين أيدينا . وأفردت لدراسة هذين الشاعرين فصلا مستقلا هو الفصل الأخير من هذا البحث .

ومهما يكن من شأن هذه الدراسة فإنى حريص على أن أسجل أن كل ما وصلت إليه فيها من نتائج لا يمكن أن يكون الكلمة الأخيرة فى الموضوع ، فالكلمة الأخيرة فى العلم مستحيلة ، ولا يمكن أن أدعى أننى وصلت بها إلى درجة الكمال ، فالكمال لله وحده ، وإنما كل ما أستطيع أن أقوله هو أن نتائج هذه الدراسة ليست سوى نتائج لما وصل إلىَّ — أو وصلتُ إليه — من مادة لا أشك فى أن وراءها مادة أخرى لم تصل إلى ، ومن الممكن أن تغير قليلا أو كثيراً من هذه النتائج .

٤

أما الفترة التى اخترتها لدراسة هذا الموضوع ، والتى حددتها بالعصر الجاهلى ، فإنى لا أقصد بها تلك الفترة المحددة التى سبقت ظهور الإسلام فحسب ، وإنما يمتد العصر الجاهلى عندى — وأعنى به العصر الجاهلى الأدبى — حتى يشمل فترة المخضرمين ، فإن هؤلاء المخضرمين لا يمثلون عناصر جديدة فى

الحياة الأدبية الإسلامية ، وإنما هم امتداد للحياة الأدبية الجاهلية التى اكتملت ملكاتهم الفنية فى ظلها . أما العصر الأدبى الإسلامى فإنما يبدأ بأولئك الشعراء الذين لم يدركوا العصر الجاهلى ، ويبدأ تَكَوُّنُ ملكاتهم الفنية فى ظل الإسلام . ومن هنا كنت أرى أن العصر الجاهلى الأدبى ليس محدداً بفترة زمنية ينتهى بانتهائها ليبدأ بعدها العصر الأدبى الإسلامى ، ولكنه محدد بحياة أولئك النفر من الشعراء المخضرمين ينتهى بالنسبة لكل منهم بانتهاء حياته . وليس معنى هذا أننى أنفى أن هؤلاء المخضرمين قد تأثرت حياتهم الأدبية بالإسلام ، فمن المؤكد أنها تأثرت به ، ولكن من المؤكد أيضاً أن هذا التأثر يمثل مرحلة من مراحل تطورهم الأدبى ، ولكنه لا يمثل مرحلة من مراحل تكوينهم الأدبى .

* * *

وبعد، فهذا هو الموضوع الذى أقدمت على دراسته ، وأنا أعرف أنها مغامرة كتلك المغامرات التى كان يقدم عليها فتيان الصعاليك ، ولكنى أنشد مع الشنفرى « ومن يَغزُ يَغنَمْ مرة ويُشَمَّتِ » ، فإن تكن الأُولى فما توفيقى إلا بالله ، وإلا فحسبى إعذارًا لنفسى أنها مغامرة أقدمت عليها ، ولأُنشدْ مع أبى الصعاليك عروة بن الورد « ومُبْلِغُ نفسٍ عُذرَها مثل مُنْجِحِ » .

والله يهدينا سواء السبيل .

يوسف خليف

يناير ١٩٥٩